حصار طويل وحروب شديدة . وكانت مجمعاً لكثير من القبائل التي قاومت الفرنسويين سنة ١٨٨١ فحلَّ بها من جرَّاء ذلك شيءٌ كثير . وقد زال سورها وتغيرت هيئتها والتغيير متواصل فتهدَّم منازلها القديمة ويستعاض عنها ببيانٍ جديدة على الطراز الاوربي . وفتحت فيها الشوارع الواسعة وبنيت الحانات والملاهي ولا يمضي سنون كثيرة حتى تزول هيئتها القديمة كلها ولا يبقى لها من المعالم التاريخيَّة والمشاعر الدينيَّة غير ما جاء عنها في كتب التاريخ او تحفظهُ ذاكرة اهلها و يتناقلهُ الناس جيلاً بعد جيل

كتاب تنسن

لخَّصنا في الاجزاء الثلاثة الماضية رسائل الرحَّالة تنسن الثلاث وقبل ان نتمَّ تلخيصها صدر كتابهُ الموعود عن وصف رحلتهِ بالتفصيل وهو كتاب كبير في مجلدين عُرض على طابعي الكتب وناشريها قبل طبعهِ فدفع بعضهم فيهِ خمسة آلاف جنيه وبعضهم سبعة وبعضهم عشرة اي كما يدفع طابعو الكتب في مصر والشام لمؤلفيها او اكثر قليلاً ! فقبل تنسن بما دفعهُ هؤلاء عشرة آلاف جنيه ذهباً رنَّانًا جزاء ما لقيهُ من المشاق والمخاطر بل جزاء حزمهِ وعزمهِ وعلوِّ نفسيتهِ . فتقدوهُ اياها وطبعوا الكتاب وهم يظنون انهم لا يخسرون ان لم يكسبوا . طبعوا اربعين الف نسخة فبيعت كلها حالاً فاعادوا طبعهُ وقد اوفروا النفقات وسيربحون ربحاً طائلاً قبل ان تنفد الطبعة الثانية

وطابعو الكتب وناشروها في البلاد الانكليزية لا يعتمدون على الذين يشترون الكتاب منهم نسخةً نسخةً ولا على الذين يشتركون فيهِ من جمهور القراء بل على باعة الكتب الكبار وعند كلٍّ من هؤلاء الباعة مخزن كبير فيهِ الوف كثيرة من الكتب المختلفة بل قد يكون فيهِ مليون كتاب اي اكثر مما في المكتبة الخديويَّة عشرين ضعفاً فاذا اراد اصحاب مطبعة ان يطبعوا كتاباً عرضوهُ على باعة الكتب فيشتري كلٌّ منهم نسخاً كثيرة منهُ قبل طبعهِ فيعلم اصحابهُ كم يطبعون منهُ . وقد يُعرَض على بائع الكتب سبعون كتاباً مختلفاً في اليوم الواحد فيشتري نسخاً كثيرة منها كلها او من اكثرها

وغنيٌّ عن البيان ان ناشري الكتب وبائعيها تجَّار لا يهمهم الاَّ بيعها لكي يكسبوا منها فيستعملون كل الطرق المحلَّلة لذلك ومن اشهرها الاعلان عنها في الجرائد على اساليب يرغِّب القرَّاء في مطالعتها ولا سيما اذا كانت الجرائد واسعة الانتشار مرعيَّة الكلمة

لما نشبت الحرب بين فرنسا والمانيا الف بعضهم كتاباً صغيراً موضوعهُ "الحرب في مدرسة اوربا" وعرضهُ على فاشري الكتب في مدينة لندن فلم يلتفت اليهِ احد منهم فطبعهُ خارج لندن واشترت جريدة التيمس حينئذٍ انتقاداً مسهباً لهذا الكتاب رغَّب القراء في مطالعتهِ فاشتروا منهُ مئتي الف نسخة في برهة وجيزة . ومن قبيل ذلك كتاب آخر اطنبت في ذكرهِ جريدة مشهورة بصفتها فبيع منهُ اربع مئة الف نسخة

والاعلان في الجرائد لايكفي ما لم يكن الكتاب مما تلذُّ الجمهور مطالعتهُ فقد اتفق لبعضهم مئتي جنيه اجرة اعلانات عن كتاب واحد فلم يبع منهُ نسخة واحدة واتفق آخر عشرة جنيهات لاغير اجرة اعلانات عن كتاب آخر فباع منهُ ثمانين الف نسخة

والمعتمد عليهِ في انتشار الكتب عند الاوربيين طبقة الناس الخاصة فهم الطبقة الدنيا والوسطى لا الطبقة العليا وذلك لان العامة اكثر من الخاصة بكثير ولانها تقرأ وتتعالم بخلاف الخاصة تقريباً ولا سيما اذا كانت الكتب رخيصة الثمن سهلة الفهم مألوفة الموضوع

قيل استشار احد المؤلفين رجلاً من المشهورين يطبع الكتب وينشرها في كتاب يؤلفهُ فقال لهُ "الف كتاباً يقرأهُ الخاص فان عليهِ اكثر اعتمادنا في بيع الكتب" فعلى هذا يجب مشورتهُ وهو الآن في الطبقة الاولى بين المؤلفين وقد ربح من مؤلفاتهِ مالاً كثيراً وشهرة واسعة

وانتشار الكتب ليس دليلاً على عظم نفعها ولا على علم مؤلفيها بل على ان مواضيعها مما يرغب فيهِ جمهور القراء فقد الف الفيلسوف هربرت سنسر كتباً كثيرة في كل صفحة منها من دلائل العلم اكثر مما في رواية كبيرة من الروايات التي تباع بالالوف لكنهُ لم يستوفِ اجرة طبعها . وغيرهُ يؤلف رواية صغيرة فيبيعها بعشرة آلاف جنيه او اكثر

وكتاب نسن المشار اليهِ آنفاً ليس من الكتب التي يرغب الجمهور في موضوعها كثيراً ولكن الجرائد اليومية عظَّمت موضوعهُ ورغَّبت الناس في مطالعتهِ بما رووهُ عنهُ من الغرائب فتاقت النفوس الى الوقوف على زيادة الشرح والتفصيل لاسيما وان الحوادث التي ذكرت فيهِ حقيقية واقعية لاخيالية موضوعة كحوادث الروايات بالقصص فان كاتب النفس تتعلق بحادثة غريبة تُروى عن شخص موهوم فتتبع اقوال المؤلف سطراً سطراً حتى تعرف نهاية ما يرويهِ لها فاحرى بها ان تتعلق بحوادث من اغرب ما رواهُ الرواة والراوي للحوادث التي ذكرت فيهِ وهو من اهل العلم والفضل الذين لا يمينون ولا يبالغون

واي حادثة اغرب من ابحار رجل الانسان شهراً كاملاً في عطش مستمر لا يجد ما يروي ظمأهُ ويسير اشهراً ولا طعام لهُ غير دهن الوحوش البحرية . واي مشقة اشد من ان يمشي

الانسان بثياب من الجليد نهارًا ثم يتام فيها ليلاً ويصير الساعة والساعتين واستانهُ تصطكُّ الى ان تذيب حرارةُ بدنهِ الجليد في ثيابهِ فتبتلُّ بهِ وتلين وتبقى كذلك الى الصباح ثم تجلد ثانية لشدة البرد . واي خطر اعظم من ان يقع الانسان في بحر ماؤهُ ابرد من الجليد وليس حولهُ الاَّ جبال من الجليد حافاتها ناتئة كالاسوار الشاحقة وبجانبهِ البارود وُضع في الجليد ليلسفهُ وأُشعل فتيلهُ والنار تمتدُّ فيهِ بسرعة . واي بليَّة اكره من ان تشرب الثياب الاوساخ والاقذار حتى تلصق باللحم ولا تنزع عنهُ الاَّ بنزع جلدهِ وان يجمد الدهن على اليدين حتى لا يزال عنهما الاَّ بكشطهِ بالسكاكين

وكانت تثقل ايام البؤس والشدَّة ايام نعيم ورخاء ولا سيما اذا بدت احداث الجو البديعة كالشفق القطبي . ولقد قال نسن في وصفهِ " انهُ لا شيء يفوقهُ جمالاً فهو مثل حلم موسوم بابهى الوان الخيال والوانهُ ممزوجة الحواشي حتى يتعذر عليك ان تعرف بداءة اللون ونهايتهُ مع انك تراها كلها امام عينيك تراها ولكنك لا تتبيَّن شكلها كأنها نشيد تسمعهُ من بعيد . كل ما هو جميل في الحياة بعيد المنال رقيق الحواشي مثل هذا النور . اذا زدت الوانهُ بهاء ازلت منهُ الجمال . ترى السماء مثل قبة عظيمة زرقاء في وسطها ثم خضراء ثم بنفسجية وعلى سهول الجليد ظلال زرقاء تضرب الى الحمرة حيث تنهض لتوديع الشمس في مغيبها . والنجوم تتلألأ في قبة السماء وهي تنادي بالامن والسلام . والقمر في الجنوب وقد احاطت بهِ هالة صفراء . واذا بالشفق القطبي وقد لمع بثوب من اللجين يصفرُّ ثم يخضرُّ ثم يحمرُّ وينبسط وينقبض ثم ينشقُّ سيورًا تتمايل وتنبعث منها امواج من النور تظهر لحظة ثم تنطفئُ ولا تكاد تزول حتى تظهر ثانية بالسنة من نار تمتدُّ الى سمت الراس "

كل ذلك عاناهُ وشاهدهُ في تلك الرحلة ووصفهُ وصفًا دقيقًا مسهبًا موضحًا بالصور والرسوم فلا عجب اذا تهافت الوف من القراء على مطالعة كتابهِ ولا سيما لان القراء باللغة الانكليزية التي نُشر فيها يبلغون مئة مليون . وزد على ذلك ان الرحلة القطبية طالت مدتها فبلغت ثلاث سنوات وكان العلماء الذين يعوّل على حكمهم يحسبون ان نسن قد بحث عن حتفهِ بظلمهِ فلن يعود منها سالمًا . وفي اواخر الشتاء الماضي ورد تلغراف من اركوتسك في شمالي روسيا انهُ لم يزل حيًّا يرزق وانهُ عاد سالمًا . ثم كُذِّب هذا الخبر ثم حُقِّق فزاد اهتمام الناس بهِ

هذا وسنلخص بعض الفصول من هذا الكتاب في بعض الاجزاء التالية ونقتصر على ما تلذُّ مطالعتهُ للقراء العربيَّة